من هما؟

جميل بن عبد اللـه بن معمر من بنى عذرة من قضاعة التى تسكن بالحجاز على طريق مصر والشام، وأمه من «جذام» وهى تسكن فى الجانب الشمالى من هذه الطريق.

ويلتقى نسـبه ونسـب صاحبته بثينة عند جدهما حن بن ربيعة، ثم يختلفان على ما بينهما من تقارب النسـب فى قوة العشيرة وصلاح الحال.

فكان قومه أعـز من قومها، وكان أبوه «ذا مال وفضل وقدر فـى أهلـه» يلقب بصباح ويحسـب له فى بطـون قضاعة كلها حساب كبير.

ومـن هيبته بين هـذه البطون أن السـلطان أهدر دم جميل إن وجـده أهـل بثينة فى دورهم، فوجـدوه عندهم مرات ولم يجترئوا على قتله. بل جعلوا يعذرون إليه وإلى أبيه مرة بعد مرة مخافة حرب لا قبل لهم بها بين العشيرتين. إلى أن أغلظ له أبوه القول من تتابع الشـكوى إليه، فكف عنها ما استطاع ثم رجع إلى سيرته معها بعد حين.

ولعله استغنى بجاه أبيه وماله عن قصد الولاة والأمراء بالمديح طلبًا للجوائز والهبات، حتى كان بعضهم يستدعيه إلى مدحه فيعدل عن ذاك إلى الفخر بقومه فى حضرته، كما حدث بينه وبين الوليد بن عبد الملك حين سافر معه ثم رجز مكين العذرى بالوليد قائلًا:

يا بكر هل تعلم من علاكا خليفة الله على ذراكا

فطمع الوليد أن يمدحه جميل، ودعاه أن ينزل فيرجز، فنزل فقال مفتخرًا:

أنا جميل فى السنام من معد فى الذروة العلياء والركن الأشد
والبيت من سعد بن زيد والعدد ما يبتغى الأعداء منى ولقد
أضرى بالشتم لسانى ومرد أقود من شئت وصعب لم أقد

فغضب الوليد وقال له: اركب لا حملك اللّه!

ومن جملة سيرته يظهر أنه كان كما قال صعبًا لا يقاد، أو كان على شىء من العناد والخيلاء. فكان يستعظم أن يجترئ عليه أحد بمناداته باسمه فى الطريق، وحدث بعضهم أنه كان فى رهط من علية القوم عند شعب «سلع» بالمدينة... «إذ طلع علينا رجل طويل بين المنكبين، طوال، يقود راحلة عليها

بزة حسنة... فصاح به عبد الرحمن بن أزهر: هيا جميل! هيا جميل!... فالتفت مستكبرًا يسأل: من هذا؟ فلما عرف عبد الرحمن قال: قد علمت أنه لا يجترئ عليَّ إلا مثلك!.. ثم جلس فأنشدهم حتى بدا له أن يقوم «فاقتاد راحلته موليًا».

والبزة الحسنة – على ما يظهر من جملة سيرته أيضًا – كانت من لوازمه التى اشتهر بها ولا سيما فى المحافل، حتى لقد كان يحسب متنكرًا إذا مشى فى البادية بزى الرعاة، وقال بعض أصحابه: «قدمت من عند عبد الملك بن مروان وقد أجازنى وكسانى بردًا كان أفضل جائزتى. فنزلت وادى القرى فوافقت الجمعة بها، فاستخرجت بردى الذى من عند عبد الملك وقلت أصلى مع الناس. فلقينى جميل – وكان صديقًا لى – فسلم بعضنا على بعض وتساءلنا ثم افترقنا. فلما أمسيت إذا هو قد أتانى فى رحلى فقال: البرد الذى رأيته عليك تعيرينه حتى أتجمل به، فإن بينى وبين جوَّاس الشاعر مراجزة... قلت: لا. بل هو لك كسوة، وكسوته إياه... فلما أصبحنا جعل الأعاريب يأتون أرسالًا حتى اجتمع منهم بشر كثير، وحضرت وأصحابى، فإذا بجميل قد جاء وعليه حلتان

ما رأيت مثلهما على أحد قط. وإذا بردى الذى كسوته إياه قد جعله جلا لجمله..».

فالرجل الذى يتخذ خلعة من الخليفة يزهى بها صاحبها جلاً لجمله، ويلبس خيرًا منها، رجل ولا شك مفرط الخيلاء معنى بحسن البزة وأناقة الكساء، وقد ترجع هذه الخيلاء إلى النشأة العزيزة فى بيوت الرئاسة بالبادية، فليس أقرب إلى الخيلاء من أبناء هؤلاء الرؤساء. ولا سيما الذين رزقوا منهم جمال السمت وروعة المظهر كما رزق جميل.

إلا أنها على هذا خليقة مطبوعة فيه لها مرجع غير التدليل والنشأة فى بيوت الرئاسة كما يؤخذ من بعض أوصافه. فقد ذكر صاحب له من أهل تيماء أنه كان معه يحدثه ويستمع له «إذ ثار وتربد وجهه ووثب نافرًا مقشعر الشعر متغير اللون» حتى أنكره.

فهذه الخليقة الجامحة التى لا يملكها صاحبها هى على التحقيق مرجع من مراجع تلك الخيلاء التى اشتهر بها جميل، وقد توافق الطبع والنشأة والمظهر على الإملاء لصاحبنا فى خيلائه، فغير عجيب مع هذا كله أن يتحامق ويحمق، فلا يستتر حمقه حيث يريد وحيث لا يريد.

وكيف يخفى حمق جميل وهو القائل:

لا لا أبوح بحب بثنة إنهـــا أخذت علىّ مواثقًا وعهـــودا

أيقــول هذا البيت رجل رشــيد كائنًا مــا كان قصده وذاهبًا ما ذهب فى معناه؟

إنه كان مضرب المثل بحقٍّ على حماقة «كاتم الســر» الذى يقسم ألا يبوح به، وهو فى قسمه على الكتمان قد باح!

* * *

فجملة المفهوم من أوصافه وأخباره أنه كان فتى من الفتيان الذين تكتب لهم – أو تكتب عليهم – حياة الغرام.

فكان وســيمًا قسيمًا طويل القامة عريض المنكبين مدللًا فى نشأته منظورًا إليه فى بزته وعزة قومه، على ضعف فى الخلق والعقــل يقعد به من عظائم الأمور، ولا يكبح جماحه أن بدأت بــه غواية الهــوى فتمادت به إلى منتهاها، وكذلك رشــحته النشــأة والخلقة والخليقة ليكون جميــل بثينة، وجاء العصر والجوار فزكيا هذا الترشيح وأوسعا له عن مداه، فهو فى دوره الذى تمثل لنا به فى عالم الشعر غير غريب.

* * *

أما صاحبته بثينة فقد وصفها جميل بعين المحب ووصفها غيره كما يراها كل من رآها، فخلص لنا من جملة هذه الصفات أنها كانت «أدماء طوالة» كما قال عمر بن أبى ربيعة، وأنها تفرع النساء طولا كما قال الرجل الذى حمل إليها نعى جميل.

ومن كلام عمر وجميل معًا يبدو لنا أنها كانت على سنة البدويات فى التأبى والدلال الذى يشوبه الجفاء. فلما تصدى لها عمر بن أبى ربيعة خرجت له فى مباذلها لا تحفله وقالت له: «واللّه يا عمر لا أكون من نسائك اللاتى يزعمن أن قد قتلهن الوجد بك!».

وقال جميل:

ولست على بذل الصفاء هويتها ولكن سبتنى بالدلال وبالبخل

فهى معشوقة بدوية صالحة «لدورها» المشهور مع جميل، وقد زادنا جميل معرفة بتفصيلات ملامحها فقال: «إنها لطيفة طى الكشح ذات شوى خدل[1]»... وكرر هذا الوصف مرات فقال:

إلى رجّح الأكفال هيف خصورها
عذاب الثنايا ريقهن طهور

(١) الكشح: الخصر إلى وسط الظهر، والشوى: الأطراف والخدل: الممتلىء.

ووصف ثغرها مرة أخرى فقال:

مفلجة الأنياب لـو أن ريقهـــا يداوى به الموتى لقاموا من القبر

وعمم الوصف فذكر جيدها وعينها فى بيت يقول فيه:

وأحسن خلق الله جيـــدًا ومقلـــة
تُشَبَّهُ فى النسوان بالشادن الطفـــل

وفى بيت آخر يقول فيه:

لها مقلتا ريم وجيد جدايـــة
وكشح كطى السابرية أهيـف[1]

فإذا أعطينا «الوصف التقليدى» حقه من هذه الأبيات بقى لنا منها أن بثينة كانت حســناء بدوية لم يثقلها ترف الحاضرة، ولم يعرقها شـظف العيش، فهى رشيقة معتدلة الخلق سامقة القوام مستحبة الملامح لمن يراها، مفتونًا بها أو غير مفتون.

ومن بعض أحاديث كثير عن إشارات جميل لبثينة وفطنتها إلـى معناها وردها عليها لسـاعتها، يبدو لنـا أنها كانت من

(١) السابرية: حرير ينسب إلى سابور، والجداية: ولد الظبى بلغ ستة أشهر.

الـذكاء على نصيب يسـعف الفتـاة فى مواقف الغـرام، وهو نصيب غير نادر بين جميع الفتيات.

إلا أنها «شـن وافق طبقـه» فى علاقتهـا بجميل، فكانت لا تخلـو من حماقة وخفة يلاحظها من يحادثها، وقيل: إنها دخلـت على عبد الملك بـن مروان «فرأى امـرأة خلفاء – أى حمقاء – مولّيةً، فقـال لها: ما الذى رأى فيك جميل؟ قالت: الذى رأى فيك الناس حين استخلفوك».

ومثل هذه الحماقة لا تظهر فى الكهولة إلا كان لها أسـاس أصيل من بداية العمر، وبخاصة فى عهد الغواية والشباب.

* * *

وقد كان جميل يحاول أن يقتدى فى وصفها بابن أبى ربيعة فى وصفه لنسائه المترفات المنعمات فيقول عنها وعن أترابها:

إذا حميت شمس النهار اتقينها
بأكسية الديباج والخز ذى الخمل

ولكنها محاكاة لا تلبث أن تنكشـف وينكشف باطلها كما ينكشف كل زيف وتلفيق. فبثينة هذه من بنات «بنى الأحبّ» الذين قال فيهم جميل حين غضب:

إن «أحبّ» سفلــة أشـــــــرار حثالة عودهـــم خـــــــوّار
أذل قوم حين يدعى الجـــــار

والذين قال فيهم حين توعدوه مشـيرًا إلى عجزهم عن قتله لأنهم لا يقدرون على الحرب ولا على الدية:

إذا ما رأونى طالعًا مـن ثنيـــــة
يقولون من هذا وقـد عرفونـــــى
يقولون لى أهلا وسهلا ومرحبًا
ولو ظفروا بى خاليـًا قتلونـــــى
وكيف ولا توفى دماؤهم دمـــى
ولا مالهم ذو ندهـة فيدونـــــى

وليست هى غضبة هجاء يقال فيها بالحق وبالباطل، لأنهم فى الواقع لم يجترئوا على حماية عرضهم من جميل حتى بعد أن أهدر السـلطان دمه لهم إن رأوه فى بيوتهم، وكان قصارى ما يصنعه زوجها أن يشـكوه ويشـكوها إلـى أبيها وأخيها، وقصـارى ما يصنعه هذان أن يتعرضا لها فيشـد عليهم جميل بالسـيف فيهربا أو يشـكواه إلى أبيه ويعذرا إليه، وقد أربيا على حد الإعذار.

وكأنما كانت وسامة جميل مزية من مزايا كثيرة حببت إليها هواه ولم تكن هى المزية الأولى والأخيرة. كان ماله على ما يبدو من كلامه بعض هذه المزايا، إذ لا محل لقوله إن لم يكن هذا كذاك:

ولو أرسلت يومًا بثينة تبتغى يمينى وقد عزت علىّ يمينى
لأعطيتها ما جاء يبغى رسولها وقلت لها بعد اليمين سلينى
سلينى مالى يا بثين فإنما يبيّن عند المال كل ضنين

ولقد كان يرحل ويعود فيتهمها بصلة جديدة ثم لا تبالى هى أن تلمح إلى هذه الصلة فى بعض مناجاتها إياه.

وقد تزوجت برجل أعور ضعيف المنة لا يروقها ولا تهابه ولا تشعر بحماه، فلولا أن «بنى الأحبّ» كانوا فى ذلك الحين كما وصفهم لما كان زواجها بذلك الرجل خير زواج ترتضيه، بعد أن حيل بينها وبين الزواج بجميل.

ونحن نعلم أنها تزوجت ولا نعلم أن جميلا قد تزوج إلى أن مات، وقد تكون أوفى النساء له ثم تتزوج لأن أمرها إلى غيرها، وهو لا يتزوج لأن أمره بين يديه، ولكنها لم تكن من

الوفاء بحيث يقدح الزواج وحده فى ذلك الوفاء، ولعلها إحدى الكثيرات اللاتى يصدق فيهن وصف كثير تلميذ جميل:

ألا إنما ليلى عصا خيزرانـــة
إذا غمزوها بالأكف تليـــن